رسائل لن تقرأ

بقلم.. فوزية بوبكري / تونس

إن الذي قطعوا أطرافه سيبقى له قلب يطير به ويهديه.

لكن الذي قتلوا أحلامه سيكون جسما تائها في أرجائه بلا روح ترشده وتهديه.

بهذه الكلمات أتمت رسالتها رقم خمسة وعشرين. قامت بطي الورقة بلطف ووضعتها فوق مجموعة رسائل مبعثرة على حافة سرير غير مرتب، قميص نوم ملقى بإهمال فوق الوسادة. كل ما في الغرفة يوحي بالفوضى وأن صاحبتها قضت ليلة من الأرق والقلق والتوتر.

أشعة الشمس تخترق الستائر الرمادية فتنعكس على وجنتيها الباهتتين وتلامس خصلات شعرها الأسود مما أكسبه بريقا جميلًا. تقدمت نحو النافذة وأزاحت الستائر فغمر نور الشمس الغرفة. تفاءلت خيرا، يوم ربيعي في شهر جانفي.

توقفت أمام المرآة الكبيرة التي تتوسط خزانة ملابسها، تحركت أصابعها فوق وجنتيها، اكتشفت أن شيئا قد تغير، ها قد بدأ العمر يمضي وبدأت خطوط الهرم تتعمق في الجسد بعد أن تغلغلت في الروح. وكأنها ترى وجهها لأول مرة، فمنذ زمن بعيد توقفت عن النظر إلى وجهها ولكنها اليوم على موعد انتظرته طيلة خمس وعشرين سنة.

وقفت أمام المرآة تبحث في انعكاسها عن ملامح تلك الطالبة الثائرة، المفعمة بالحيوية، الجريئة والتي كانت تقود احتجاجات الطلبة في زمن ما أشبه بهذه الأيام وكأن شهر جانفي هو شهر الثورات والاحتجاجات في بلدها الذي كُتب عليه ألا يحكمه إلا كل ظالم متجبر.

أخذت الأسئلة تتدفق مع تدفق نهر الذكريات.

ترى هل يمكنني أن أبدأ من جديد؟ من تلك المحطة الوجودية أين توقف بي قطار الزمن وأعيدُ رسم الحكاية.

هل بإمكاني أن أعيد رسم القدر وأمحو كل السياقات وأغير الحيثيات والمجريات ويعود قطار العمر؟ هل أزور التاريخ والمكان وكل ما مرّ علينا من ساعات الزمن؟

هل يمكنني أن أعود إلى تلك المحطة في لحظة! في طرفة عين!؟

هل كنت نائمة؟ هل كنت في سبات واستيقظت اليوم على وقع موعد ضُرب منذ زمن.

ها هي تحاول إعادة اللحظات التي لم تكن حلما وأيضا لم تكن واقعا، فقط كانت حالة البين بين.

عادت إلى حزمة الرسائل واحتضنتها كما تحتضن أم مولودها واتجهت نحو المطبخ لتعد قهوتها الصباحية، توقفت أمام صورة لوالدتها تتوسط قاعة جلوس صغيرة بأثاث متواضع. نظرت إلى الصورة وخاطبتها: كم تمنيت يا أمي أن يطول بك العمر لأجيبك عن سؤالك الذي ظللت تسألينه لي كل ما تقدم أحدهم لطلب يدي بعد طلاقي:

- ماذا ومن تنتظرين يا ابنتي؟ العمر يمضي بك ولن أبقى معك دائما، ستجدين نفسك وحيدة في يوم من الأيام.!
- اليوم يا أمي أستطيع أن أبوح لك بأني كنت أنتظر هذا اليوم، الرابع عشر من جانفي لسنة ألفين ووإحدى عشر. نعم يا أمي هو عيد ميلادي الخامس والأربعين ولكنه أيضا تاريخ موعدٍ ضربته مع من سكن الروح والقلب منذ خمس وعشرين عاما.

ياااه منذ أعوام وقلبي منفيّ على هامش الجسد، على هامش الحياة والأيام، منتظرة هذا التاريخ.

أيام شبيهه بهذه الأيام، شعب غاضب وظلم وقهر يطغى على كل إحساس. اتكأت على الكرسي الهزاز الذي كانت تجلس عليه والدتها وصور من الماضي البعيد يمر كشريط بالأبيض والأسود.

بعض المشاهد نعاند كي لا نراها ولا نتذكرها ولكننا لا نشاهد غيرها:

مجموعة من الطلبة يجرون عبر أزقة المدينة القديمة وبوليس مدجج بالعصي والسلاح يلاحقهم، وفتاة في العشرين ترتدي بنطلونا من الجينز الأزرق وحذاءً رياضيًا وقد شدت شعرها الطويل على شكل ذيل حصان وكأنها كانت مستعدة لهذا الماراتون. كأن تتعدو بخفة وقد تخلصت من حزمة مناشير بإلقائها في حاوية كبيرة للقمامة وشاب ملتحي بجسد رياضي يسبقها بخطوات، يلتفت إليها ويحثها على الإسراع. لوهلة أحست أنها ستسقط أرضًا وأن البوليس سيمسك بها اتكأت على باب نصف مغلق لعمارة متداعية، تراجع الشاب خطوات يريد الإمساك بها وجرها حتى لا يلحق بها من يطاردونهم من تلك الفرقة الشرسة ولكن

يدا أمسكتها ودفعتها داخل بهو العمارة فجأة، يد أخرى جذبتها هيومن لحق بها وأدخلتهما داخل القبو المظلم وخيال شخص يشير لهما أن أصمتا!

تركهما في حيرة بين الخوف منه والاطمئنان إلي أنهما اختفيا عن أنظار مطارديهم.

وقف الرجل أمام باب العمارة بكل ثقة واطمئنان. كانت كل فرائصها ترتعد وهو يحاول تهدئتها بوضع يده على رأسها كأنه يحميها من تلك الكلاب المسعورة. ازدادا التصاقا وهما يسمعان شرطيًا يسأل حارس العمارة هل رأيت شاب وفتاة يعدوان من هنا؟

أجاب الرجل نعم رأيتهما.

لم تعد رجلاها تقويان على حملها، سقطت أرضا وهو يحاول إمساكها حتى لا تحدث صوتا.

- أين اتجها؟ سأله.
- اتجها إلى هناك وأظن أنهما اختفيا داخل ذلك الزقاق.

تنفس الشاب الصعداء أما هي فقد كانت شبه مغمى عليها فلم تسمع شيئا وظلت شاخصة تنتظر انقضاض الكلاب عليها وعلى من معها.

همس لها: أنت عمري الذي لا ينطفئ أبدا.

وأنتِ الوطن وأنت السكن.

أجابته نظراتها الدامعة.

انحبست الأنفاس، لا حركة إلا حركة العيون.

قبل أن تتمكن من الكلام دخل الحارس وطلب منهما البقاء في غرفته في قبو العمارة ساعة إلى أن تبتعد الشرطة وتهدأ موجة المطاردات.

توقف النبض وتوقف الزمن، لحظات اجتمعت فيها كل المتناقضات من شعور بالخوف وإحساس بالأمان، شعور بالجرم ويقين بحقهما في الحب. انتظار لهدوء يسود الشارع خارجا حتى يتمكن كل واحد منهما من الالتحاق بمبيته الجامعي وأمنية بأن يطول الوقت وهما مع بعض.

قال لها همسا: لا أعرف ما الذي ينتظرني غدا ولكنك ستبقين الحلم الذي أحيا من أجله.

نظر في عينيها، رأت بريقهما رغم الضوء الخافت المتسرب من باب الغرفة الذي فتحه بعد أن تأكد من ابتعاد الشرطة ثم أمسك بيديها وقال هل تعلمين أن لي حلمين، الحلم الأول أنتِ والحلم الثاني وطن حر بلا ظلم ولا قهر.

قالت بصوت مرتعش: أعترف لك الآن أني لا أستطيع تجاوزك فأنت محطتي الأخيرة ولن يكون بعدك أي شيء. أعترف لك أني سأبقى كما أنا لو قرّر الجلاد يوما إبعادنا عن بعض. سأبقى أكتب عنك وحدك، سأكتب وأتخطى كل لحظات ضعفي وحزني بك أنت. ولا أحد غيرك يشعرني بالقوة وأنا أقول له كم أنا ضعيفة. أعدك سأبقى كما أنا، كما أنت، سأحادث عنك القمر وأسأل عنك موج البحر، برغم خوفي وحزني ستبقى أيامي بك ومعك هي الأجمل والأروع.

ساعة توقف عندها قطار الزمن. ليعلن أنها محطتها الأخيرة التي توقفت عندها ولم تغادرها طيلة ربع قرن مما تعده ساعات الزمن في وطن كان هو السجن وهو الحزن وهو الحب. وطن كل ما فيه يأبى النسيان، تتكرّر الأحداث فيه كلما توقف قطاره في محطة من تاريخه المليء بالمِحَن، وهل نحن إلا صورة عن هذا الوطن؟

نظرت إليها، إلى نفسها وهي ممسكة بظهر الكرسي القابع في سكون منذ سنة ونصف، يوم ودعت أمها وسندها الوداع الأخير، انتابها إحساس بأنها لم تتغير أو هكذا بدا لها.

تحدثت إلى نفسها، سمعتها، طرب القلب لأغاني الانتصار وكسر النواميس، نواميس الزمن.

أعادت لما مضى وصلا وأقنعت نفسها أن الزمن سيعود بهما مُفرَغا بما حمل من ذكريات تشقّق سطحها من ثقل تراكمات الماضي وفوضى الحاضر؟

طارت النفس فرحا وعانقت روحها سماء صافية كصفاء هذا اليوم الشتويّ، لا تشبه سماء ما مرّ عليها من محن. امتدت يدها لصورة والدتها، مررتها عليها برفق واتجهت نحو المطبخ وهي تمتم: هل يمكن أن يكون المستحيل وعدا يا أمي فيصبح الحلم حقيقة؟

أسئلة أعمق من أن يجيب عليها عقلها في الوقت الوجيز الذي يستغرقه السير من مكانها إلى المطبخ.

وضعت حزمة الرسائل على المنضدة الملاصقة لنافذة تطل على حديقة صغيرة، فتحتها فتسربت نسمة صباحية باردة، بعثت نشاطا في جسمها

لم يكن لتشعر به قبل أن تتناول فنجان قهوتها، ذلك السائل الأسود الذي طالما مكّنها من الصمود أمام كل ذلك الزخم من الأدوار التي كان عليها تقمصها طيلة أيام عصيبة عاشتها. ما أصعب تلك الصباحات الشتائية الباردة التي ظلت تغتال ذاكرتها المتسائلة من إرهاق مزمن لم يفارقها على مدى خمس وعشرين سنة، ولكن هذا الصباح مختلف عن كل صباحات الشتاءات السابقة.

بخطى راقصة شغلت آلة القهوة الكهربائية بعد أن عبأتها بما يلزمها من ماء وبنّ.

اتجهت نحو جهاز راديو كانت قد أهملته من سنين في ركن من المطبخ فأصبح مجرد ديكور. فهي ومنذ زمن بعيد لم تعد تهتم لسماع فيروز عندما تشرب قهوتها الصباحية ولا إلى أم كلثوم وهي تستعد للنوم، فتحته تريد أن تعرف ما جدّ من أخبار فأخبار البارحة في قناة الجزيرة توحي بأن الاحتجاجات في تصاعد خطير بعد أن أعلنت الحكومة عن توقُف الدروس في كافة المؤسسات التربوية منذ أربعة أيام. مما جعلها تلازم البيت الذي تقيم فيه لوحدها منذ وفاة والدتها في إحدى ضواحي العاصمة.

يوم رابع لن تلتقي فيه بتلامذتها ولن تعيش معهم شرح معلقة أمرئ القيس ولا شرح كيف كان حب جميل لبثينة عذريا.

انطلق صوت من آلة القهوة قطع عنها حبل أفكارها معلنا أنها أصبحت جاهزة.

بحثت بين الرفوف عن فنجان مُميّز مخبئ بين طقم الكؤوس. فنجان يحمل ذكرى عزيزة عليها حتى أنها لم تكن تستعمله إلا في يوم عيد ميلادها. هو ذكرى من ذلك الحبيب الغائب عن عينيها والحاضر في كل تفاصيل أيامها. كأس أهداه لها في مثل هذا اليوم، عيد ميلادها التاسع عشر لما كانت طالبة في سنتها الأولى آداب عربية وهو في السنة الثانية محاماة.

كانت طالبة متفوقة وكان طالبا ثائرا..

كان من الشمال وكانت من الجنوب..

كان صامتا في وقار وكانت مشاكسة في إصرار..

كان ملتزما، متدينا وكانت عادية غير محجبة فقد كان ممنوعا على الطالبات دخول الجامعة بالحجاب.

كذلك كانت الجامعة في الثمانينات، فضاء يحتضن جيلا خصيبا كالرياح اللواقح.

تذكر جيّدا أنهم كانوا جيلا يطير بأكثر من جناح، جيل اجتمع من كل أرجاء الوطن بل كان ساحة وسعت كل المشارب الفكرية ومن كل شعاب المعارف. جامعة الآداب كانت تتوقّد فكرا وجدلا عميقا، ينكسر على أعتابها كلّ حدّ معرفيّ فطلبة العربية لا تفوتهم كتب الفلسفة وطلبة الفلسفة يحفظون المعلقات والكل ينافس طلبة علم النفس في تتبع كتابات فرويد وهم ينافسوننا في استبطان نصوصنا الأدبية، يعرّج الكل على علم الاجتماع فيعرج أهله على الرواية كي لا يفوتهم أي نقاش في أية حلقة من الحلقات. خلطة عجيبة كنمل لا يتوقف عن السعي، كان كل

الطلبة لا يتركون علما إلا اقتحموه ولا كتابا إلا التهموه. كان الجوع للمعارف طاغيا عليهم، عرفوا كل المدارس الفكرية الغربية منها والشرقية.

كانوا أساتذة بعضهم، لا يبيت الواحد منهم مغتاظا إلا من زميل أو زميلة جحد كتابا أو أخفى معلومة ظفر بها صدفة، كانت الثقافة والمعرفة كبركة ماء تستهدي إليها الطيور المهاجرة. أما السياسة فكان لها شأن أكبر وأخطر، كان الرفيق يخطب ويحاول إقناع الكل بأن الشيوعية هي الحل أما الإسلامي فيمكث ساعات طوال ليثبت ضرر تهافت المادية التاريخية، والقومي والبعثي وغيرهم يخطبون في حلقات والكل متفق على شيء واحد ألا وهو فساد وظلم الحاكم وضرورة الاحتجاج والثورة.

ومع ذلك كان الكل يحب ويعشق ويقول الشعر في حبيبته والفتيات يبادلن الشباب المشاعر في خفر واستحياء.

آاااه لهيبة الذكرى.

أمسكت فنجان القهوة التي بردت وهي تحرك فيها وقد سرحت في كل ما كان يوما، حياة متكاملة.

جلست على كرسيها جانب النافذة المفتوحة، أحست بنسمة باردة تلفح وجهها ولكنها بعثت فيها نشاطا وزادتها تفاؤلا بأن يومها سيكون مُميّزا ورائعا كما انتظرته على مدى سنوات.

قربت إليها حزمة الرسائل.

تساءلت هل الماضي يمضي حقا أم أنه يعرش فينا لنعيش فيه كبيت ألفناه وألفنا؟

نثرت الرسائل أمامها على الطاولة، تحسّست بيديها الأوراق التي طال بعضها القدم فتغيّر لونها، ما كان لأي ضياء أن يغطي مساحات الحنين سوى موعدها مع هذه الرسائل التي تكتبها في مثل هذا اليوم من كل عام وعلى مدى خمسة وعشرين عاما، كان يُخيّل لها طيلة هذه السنوات أن هناك لحظة مستمرة لم تتوقف أبدا، لا زالت تحدث في مكان ما من هذا الوطن الذي ضاق على رحابته بشبابه، لحظة لم تعشها ولكنها مرتبطة بها، فأصبحت هذه الرسائل التي لا تُرسلها هي التي ترسم الـ ٣٦٥ يوما القادمة من حياتها كما ترسم حلمها بذلك اللقاء المؤجّل، حرصت على كتابة رسالة كل عام في مثل هذا اليوم كأنها تريد أن تصرف طاقة الحزن في اتجاه آخر، رسائل ظلت تبثها مخزونا من الطاقة يجعلها تقاوم الجفاف الذي طغى على أرض واقعها وأحلامها.

أمسكت رسالة في الرزمة التي أمامها، لا تشبه بقية الرسائل، كانت مجرد كلمات كتبت على علبة دخان فارغة.

التاريخ فيفري ١٩٨٤:

حب عمري عديني أن تنتظريني، قد أخرج من السجن قبل أن أتم مدة الحكم وقد أتمم الربع قرن داخل زنزانتي، ستظلين أنت الأمل والحلم الذي يمدّ شراييني بنبض الحياة، سيكون هذا الأمل هو ما يربطني بالعالم الخارجي.

حب عمري وعدٌ علي، سأبحث عنك في كل مكان. أعلم أن خمسا وعشرين عاما كفيلة بتغيير العناوين وتغيير ملامح الإنسان والمكان ولكن قلبي سيهديني إليك. لو لم أجدك قبل مرور هذه المدة سيكون هذا موعد بيننا، بعد خمس وعشرين عاما نلتقي عند تلك الصخرة، على شاطئ ذلك البحر الذي شهد لقاءاتنا ومواعيدنا، ليكن موعدنا عند منتصف النهار في يوم ميلادك، هل تذكرين أن ذلك التاريخ كان كلمة السر بيننا لما كنا نقرر نشر المناشير الثورية بين الطلبة؟ تلك الرمال وتلك الصخور التي شهدت كل لقاءاتنا خلال سنتين كانتا من أجمل أيامنا، مكان شهد حبنا وثورتنا وكفاحنا. إذا أتيت يومها يا حب عمري إلى الموعد ولم تجديني اعلمي أني قضيت نحبي لأنه لن يمنعني عن موعدي معك سوى الموت. وإذا أتيت ولم أجدك سأعلم أنك نسيتيني ونسيت موعدنا هذا.

عديني أنك ستأتي وأنك لن تخلفي موعدنا.

مسحت دموعا انسكبت من عينيها وشريط ذكرى تلك الأيام يمر من أمامها كأنه حدث منذ يوم أو يومين. أعادت الرسالة إلى علبة السجائر الفارغة وانطلقت الذكريات في تدافع عجيب.

بعد أن تأكد حارس تلك العمارة من خلو المكان من رجال الشرطة وأن كل المظاهرات قد وقع تفريقها بالقوة قال لهما: الآن يمكنكما الخروج في أمان. خرجا من ذلك القبو المظلم ليتبين لهما وجه ذلك الرجل الشهم الذي أنقذهما من اعتقال محقق، كان كهلا في الخمسين من عمره، تعلو وجهه سمرة، تبتسم عيناه قبل شفتيه، قال لهما باقتضاب وهو يقرأ سؤالا كسا ملامحهما: اعتقلت في سنة أربع وستين من طرف أسلاف هؤلاء الكلاب المسعورة والتي ورثت عنها شراستها وتدربت عليها، وكأن

التاريخ لا يريد أن يتغير والظلم يأبى أن يرحل عن هذه الأرض الطيبة. لذا لا تسألاني لماذا فعلت ما فعلت وعرضت نفسي للخطر.

شكراه وانطلقا وسط شارع خال إلا من بعض المترجلين وبعض سيارات الأجرة، أوقفا إحداها وركبا.

إلى أين؟ قال السائق بتجهم:

- إلى المبيت الجامعي للفتيات أجابه مرافقها، سأوصل أختي إلى هناك أضاف وقد لاحظ نظرة ريبة في عيني الرجل. فقد كان معروفا لدى الكل أن أغلبية سائقي سيارات الأجرة من المخبرين.

ظلت طول الطريق صامتة بينما كان هو يجاذب أطراف الحديث مع السائق عن هؤلاء المشاغبين الذين يهددون الأمن والأمان في بلد الرفاهية والتقدم، محاولا درء الشبهة عنهما.

وقفت السيارة أمام بناية المبيت، نزلا بعد أن دفع الأجرة دخلت المبنى ورحل هو ليتم المسافة الفاصلة بين مبيت الفتيات ومبيت الشباب سيرا على الأقدام ليكون ذلك آخر لقاء لها به.

تعطلت الدروس أسبوعا كاملا مع حملات تفتيش ومداهمات ليلا ونهارا لغرف الطالبات بحثا عن أدلة إدانة، تمكنت من إتلاف كل ما عندها من مسودات لمنشورات تكفلت هي بتحريرها. وقع اعتقال العديد من الفتيات، ربما مظهرها وعدم لبسها للحجاب جعلها خارج الشبهات فهي

ممـن لا يمكـن تصـنيفه لا مـن اليمـين ولا مـن اليسـار، وقـد طالـت الاعتقالات كل التيارات في تلك الفترة.

بعد أسبوع من الحيرة، تباينت فيه الأخبار والشائعات حول من تم اعتقالهم من الطلبة، تقرر إعادة فتح الكليات واستئناف الدروس كاملة. انتقل الخبر بسرعة بين غرف الطالبات. واستعدّ الكل للعودة.

باتت ليلتها بين خوف ورجاء، هل ستلقاه غدا؟ هل تمّ اعتقاله؟ هل نجا من قبضتهم كما نجت هي؟

بدأت الحركة تهدأ وأخذ الصخب يتحول إلى همسات بين فتيات، لكل واحدة منهن حكاية خاصة بها ورواية مختلفة للأحداث والمستجدات.

استلقت على سريرها وقد تصدع رأسها من ثرثرة رفيقتها في الغرفة، أدارت لها ظهرها متظاهرة بالنوم، أغمضت عينيها على صورته وهو يودعها أمام المبيت منذ أسبوع.

التفتت يمنة ويسرة تبحث عن شخص، عن فكرة، عن مشهد، لم يكن الهدف محدّدا، ها هي ترى نفسها تجري في كل الاتجاهات. رأت نفسها تحتضن فراشات الربيع ثم تتركها مسرعة في اتجاه آخر لتعانق ثلوج الشتاء ثم تعدو لتصافح أوراق الخريف المتساقطة تحت قدميها وفجأة تقرر أن تهرول مسرعة تريد الإمساك بخيوط شمس ساطعة في يوم صيف قائظ. كانت تجري يمينا وشمالا وكأنها تطارد شيئا يهرب منها أو تهرب من خطر يداهمها. توقفت للحظات وهي تلهث. نظرت مليّا، كان هناك على الجانب الآخر، يقف بكل عنفوان يمد يده من بين تلك

اللوحات المتداخلة لفصول السنة المختلفة. لم تفهم هل يمدّ لها يدا يدعوها إليه أم تراه يمد يده دافعا إياها بعيدا عنه!

أخرجها من ذهولها صوت صديقتها في الغرفة: انهضي بسرعة ستفوتنا الحافلة الخاصة بالطلبة.

تطلب منها الأمر لحظات حتى تستوعب أنها كانت تعيش حلما غريبا.

بسرعة اغتسلت ووقفت أمام المرآة وهي تخاطب نفسها: لا بد أن أغير من هيئتي قليلا زيادة في الحيطة.

أسدلت شعرها الطويل وتناولت مقصا وجعلت لها غرة منسدلة على جبينها، لم تجمع بقية شعرها على شكل ذيل حصان بل تركته منسدلًا على كتفيها كخيوط ليل طويل.

جاءها صوته كصدى لترنيمة عذبة: متى ستتحجبين؟ متى تخفين هذا الشعر الساحر عن العيون؟ سؤال طالما طرحه عليها وكانت تتحجج بأنها ستتعرض لمضايقات الحرس الجامعي وستكون محط أنظار البوليس السياسي ولن تستطيع النشاط بحرية.

ترى هل سيعرفونني؟

جاءها صوت رفيقتها ساخرا: لن يعرفك أحد حتى طارق لن يتعرف عليك!

التفتت إليها مبتسمة، ابتسامة هي أقرب للبكاء وقالت: المهم أن يحضر، سأعرفه أنا!

خرجت وهي تحمل أملا ضئيلا جدا بلقائه. تفاجأ الكل بالعدد الكبير من رجال الأمن المدجّجين بالسلاح في محيط الجامعة. لم يكن يُسمح بالدخول دون الاستظهار ببطاقة طالب، أما المحجبات كان عليهن نزع حجابهن وإلا يُمنعن من دخول الحرم الجامعي. مرت من الحاجز بسلام بعد ابتسامة إغراء ألقتها في وجه رجال الأمن. حاولت إبعاد إحساسا بالألم واحتقار لنفسها فقد كان لا بد أن تمرّ وإن كان الثمن بعضا من التنازلات.

وجوه كثيرة غابت عن الساحة واختفت حلقات النقاش، كان الحديث همسا مع شعور بأن الكل مراقَب. تناقل الطلبة الذكور أن أغلب القيادات في مختلف الاتجاهات وقع اعتقالهم في مداهمة ليلية لهم في غرفهم وسط مبنى المبيت. تأكدت أنه كان منهم.

مرّ شهر، تحولت الجامعة إلى ثكنة، وعمّ الشعور بالخوف من كل شيء وأصبح الكل يخشى الكل. إلى أن أعلنت أجهزة الإعلام أن تلك الشرذمة الضالة وقعت محاكمتها واختلفت الأحكام بين الإعدام والمؤبد وسنوات سجن من خمس وعشرين عاما إلى ثلاث سنوات مع إطلاق سراح عدد قليل لعدم ثبوت التهمة.

كانت واقفة في باحة الجامعة عندما سمعت اسمها، التفتت، إنه سالم صديق طارق والذي اعتقل معه منذ أكثر من شهر. كادت ترتمي عليه من فرط فرحتها، دون أن يكلمها ناولها علبة سجائر وأمام نظراتها المتعجبة همس: في داخلها رسالة من طارق.

تماسكت حتى لا تسقط بينما ابتعد سالم في لا مبالاة وكأنه لا يعرفها. دون تفكير ولا خوف أخرجت الرسالة والتهمت حروفها.

بعض الأوجاع تتخطى مرحلة الألم فتصبح قاتلة كجلطة دماغية تدمّر كل الخلايا ولا يتبقى سوى الصمت ملاذا ودواءً.

لم يبق للحزن مساحة لفهم أشياء لم يعد يجدِ فهمها.

أطبقت الدهشة على الجميع من هول الأحداث والظلم المُكمّم للأفواه، تشتت كل التفاصيل فما عادت قادرة على ترتيبها ومنذ تلك اللحظة امتزج الوجود بالعدم.

أشرف العام الدراسي على الانتهاء. غرق الكل في بحر الامتحانات. وغرقت هي في بحر من لأحزان.

أمضت السنتين الباقيتين لها في الجامعة في صمت. أصبحت حساسة، تبكي لأقل ملاحظة. تبتعد عن تجمعات الطلبة. لا تراها إلا منزوية تقرأ في ديوان شعر أو رواية.

عادت في صيف ١٩٨٦ إلى مدينتها مُحملة بذاكرة تأبى النسيان وبشهادة تخرج من كلية الآداب العربية.

مرّت أيام الصيف طويلة مملّة وكان لابد لها من البحث عن وظيفة بسلك التعليم فهو الوظيفة الوحيدة التي تليق بالمرأة، وكانت تعرف أن مثل هذه التعيينات يلزمها تدخل من مسؤول في الوزارة وهي تكاد الأولى التي أتمت تعليمها الجامعي في عائلتها المهتمة بالفلاحة.

جاءتها أمها ذات صباح لتزف لها أن ابن صديقة لها مسؤول مهم في الوزارة وقد وعدتها بأن تكلمه بشأنها. حاولت مجاراة والدتها في فرحتها، ابتسمت وقالت ربي يُيسّر.

لم يطل انتظارهما حتى زارتهم تلك الصديقة لتخبرها أن ابنها سيزورها غدا وعليها تجهيز ملفها وإرفاقه بطلب شغل. أحست أن المرأة تطيل النظر إليها وتتفحصها وكأنها بضاعة معروضة للبيع.

غادرت المرأة بعد أن ألحت عليها بجلب الأوراق اللازمة في الغد حتى تقابل ابنها وتسلمه إياها يدا بيد.

لم ترتح أبدا للأم ولا لابنها ولكنها تحملت مقابلته من أجل الحصول على تعيين في أحد المعاهد.

لم تكن تعلم حينها أن مأساة جديدة ستبدأ مع ذلك الشخص أحست بثقل في رأسها وكأنه ناء بحمل ذلك الكمّ من الذكريات. بحثت عن رسالة من بين حزمة الرسائل وفتحتها:

التاريخ. الرابع عشر من جانفي ١٩٨٧.

ها أنا أتمّ الشهر الخامس منذ تسلمت عملي كمدرسة لغة عربية في أحد معاهد الضاحية الشمالية للعاصمة. أتمنى إلا تكون آخر رسالة أكتبها لأن الغد لن يكون مثل اليوم.

اليوم جهّزوا أمتعتي، غدا سأسكن حضنا آخر. أشعلوا الأضواء في كل مكان إلا قلبي وروحي قد أعلنوا فيهما ظلمة دائمة. فرح الكل ورقص الكل، شعور بموت كل إحساس لدي وكأنهم يرقصون على جثتي. أرى نفسي أسيرة عند قبيلة متوحشّة وقد وضعوني في حلقة تتوسطها نيران ملتهبة وهم يرقصون حولي بانتظار تقديمي قربانا لآلهتهم.

هو جلاد الأمس يعود في صورة أحد زبانيته ليسلب مني حريتي ويسجنني في قفص سمّوه زواجا.

اكتشفت أن ذلك الوسيط جلاد من أعوان أمن الدولة. صرخت لا أريد هذا العمل إذا كان ثمنه الزواج من جلاد ولكن الوقت كان قد فات. فالجلادون لا يتنازلون عن شيء رغبوا فيه. هم من تعودوا على إذلال الغير إن لم يطعهم ويمتثل لأوامرهم ورغباتهم. وهي كانت مجرد رغبة لا بد أن يحققها فهو الجلاد وهو الحاكم وهو من لا تُردّ له كلمة.

كانت الموسيقى كقرع طبول. ضجيج من حولي وضجيج في داخلي وصوت يصرخ:

كيف سأحبه ولا أراك في ملامحه؟

كيف سأحضنه ولا أناديه باسمك؟

كيف سأبتسم وأنا أسمع اسمي بصوت ليس صوتك؟

كيف سأبكي وتكون يد غير يدك من تمسح دموعي؟

كيف سأترك الماضي للماضي؟ وموعدنا وحلمنا كيف أتخلى عنهما؟

هل ألومك أم تلومني؟

كيف أبدأ من جديد وأنا لا أعرف كيف أنهي ما بدأته معك؟

كيف تنهي وهي لم تعِ بعد أنها بدأت؟

هناك نقطة توضع آخر السطر ليبدأ سطر آخر.

وهي تعي جيدا أن هذه النقطة ستنهي كل شيء وستأخذها إلى عالم آخر لا مكان لأحلامها وذكرياتها فيه.

غدا سيكون لي طريق آخر سأسير فيه. هل كان غصبا عني؟ هل كان برغبتي؟ لا يهم ذلك الآن، المهم أنني سأسير فيه وحدي ولن تكون معي فيه.

خبأت رأسها بين يديها وكأنها تهرب من صورة بشعة لمشهد لا تريد.

الاغتصاب هو التعدي على حرمة الجسد. قد يطال العاطفة أيضا.

أن تكون مشاعرك وأحاسيسك الجميلة مكتومة، أن تُغتصب حريتك، اغتصاب بالشرع وبالقانون.

أعادت الرسالة إلى مكانها.

تحاملت على نفسها وهي تردد: الحمد لله أنه كان كابوسًا لم يدم سوى ثلاثة أشهر، عاشت فيهم كوابيس في النوم واليقظة. لم تر فيه يوما إلا جلادا يعذب من تعرف ومن لم تعرف. كان يتفاخر أمامها بأن لا أحد يصمد أمام فنون تعذيبه من الخونة ولا يتركه حتى ينتزع منه ما يريد من اعترافات. كان صوت طارق يصم أذنيها، كلما أغمضت عينيها ترى هذا المُمدّد إلى جانبها وهو يعذبه ويمارس عليه ساديته المقيتة فيتحول وجهه إلى وحش مفترس، منظر يجعلها تقفز من الفراش وهي تصرخ: وحش! وحش. لم يحتمل انهيارها طويلا واعتبرها مجنونة أو على عتبة الجنون.

وبنفس الجبروت والتعنت طلّقها.

عادت إلى غرفة نومها. لن تترك هذه الذكريات تفسد عليها فرحة اللقاء. إحساس يقول لها أنه سيأتي للموعد. لبست جينز أزرق وقميصا بألوان زاهية. بحثت عن حذائها الرياضي طويلا حتى وجدته فهي لم تلبسه منذ أن غادرت الجامعة. ليس موضة هذه الأيام لكن لا بأس وهل تنتمي هي إلى هذه الأيام؟ وضعت على شعرها خمارا أزرق. سيفرح طارق جدا لما يراها محجبة. ستخبره أنها تُضطرّ لنزعه أمام باب المعهد لأن هناك قانون صدر يمنع ارتداء الحجاب داخل أماكن العمل.

أرواحنا كلؤلؤة، هي سرّ من أسرار البحار العميقة، وقد مرت بها لحظات شعرت أنها محارة ملقاة في قعر بحر تنتظر غواصا ينتشلها من وحدتها، من آلامها، من إحباطاتها وانكساراتها.

ولكنها اليوم سترمي الزمن وراءها لتحفر في أرضها القاحلة وتلملم ذاتها وآهاتها المحترقة، ستنتظر غيمة تهطل ماءً عذبا فتغسل الملح عن أرضها، فترتوي بعد سنوات قحط.

ربع قرن وهي تنتظر، بلغة القلب والأحلام انتظرته، بين ألوان الغروب، بين أمواج الشروق، عندما تصدح للحرية أنغام، مع كل شاعر ومع كل ثائر انتظرت هذا اليوم. لوحة حرية وفرحة انتصار. انتصار لخط العدل والحق والإنسان. وكأن الوطن اتحد معها ومع موعدها فخرج كله معها لموعد مع الحرية والكرامة.

ارتدت معطفها الفضفاض ووضعت حزمة الرسائل في حقيبتها اليدوية الملقاة على السرير. فتحت هاتفها المحمول: ياه الساعة العاشرة يجب أن تخرج الآن.

قررت عدم أخذ سيارتها، ستركب القطار، محطة واحدة تفصل بيتها عن مكان الموعد. اخترقت الشارع، تمشي بتأني وكأن الوجود لا يحتوي سواها.

أي جنون هذا؟ هل هناك عاقل يذهب لموعد ضُرب منذ خمسة وعشرين عاما؟

دخلت محطة القطار، كانت شبه خالية إلا من عدد قليل من الشباب يتبادلون آخر أخبار الاحتجاجات، بلغ مسامعها أن الناس بدأت تتوافد وتتجمع في شارع الزعيم في مظاهرة عظيمة.

لم تنتظر طويلا وقررت أن تذهب إلى موعدها سيرا على الأقدام، سيتطلب ذلك ربع ساعة مشيا لا أكثر فكل المرافق توقفت والقطارات لن تشذ عن ذلك.

مشت ومشت.

لم تشعر بطول المسافة وهي تستعيد ذكري آخر لقاء جمعهما في ظروف وأجواء مشحونة وانتفاضة شعب لم يعد يحتمل. عرّجت يمينا في اتجاه البحر التي بدأت رائحته تداعب أنفها فتستشعر معها رهبة اللقاء.

اتخذت مجلسها على الصخرة التي شهدت أحلى ذكرياتها. تذكر أنها قرأت مرة أن الشواطئ فقطهي التي تتغيّر. تتغير أشكالها بتأثير المد والجزر ولكن البحر والصخر يظلان ثابتين لا يتغيران مهما طال الزمان.

أرخت ساقيها، فكرت في خلع حذائها حتى تلامس قدميها مياه البحر كما كانا يفعلان دائما ولكنها تراجعت. نظرت إلى التوقيت في هاتفها: الحادي عشر وخمس وخمسون دقيقة. هل سيكون في الموعد؟ أحست بنبضات قلبها تتسارع، ألقت نظرة على البحر الممتد أمامها واستقرّ بصرها عند التقاء الزرقتين، زرقة البحر وزرقة السماء، تساءلت: ماذا لو انقشع السحاب من حياتي؟ ماذا لو انقشع الظلام عن هذا الوطن؟ ماذا لو أمسك الشمس وأديرها إلى روحي التي فارقها الدفء وعشش في جنباتها صقيع أبدي؟ لم تشعر بالدفء منذ اقتلعوا منها حلمها وافتكوها منه. ماذا لو عادت بنا عقارب الساعة إلى تلك المحطة حيث توقف قطار الزمن فأغير الأحداث وأزوّر التاريخ وألغي كل قوانين الظلم والاستبداد.

فجأة سمعت صوتا من خلفها يترنم بلحن حبيب إلى قلبها. مستقرا في دهاليز الذاكرة المُتعبة.

شايف البحر شو كبير / كبر البحر بحبك ....

شايف السماء شو بعيدي / بعد السماء بحبك.

كبر البحر وبعد السماء بحبك.

هل تصدق ما تسمعه؟ أم إن خيالها يتوهم؟

أحست بيد توضع على كتفها، استدارت وهي تكاد تفقد توازنها، أمسكها حتى لا تسقط، يااااه وكأن التاريخ توقف عند ذلك اليوم الذي أمسكها وهي تكاد تسقط رعبا وخوفا من بوليس يطاردهما.

اشتدّ صمت الرمال تحت أقدامهما، واشتد سكون البحر أمامهما. ولم يكن مسموعا سوى نبض قلبين آمنا بأن الحب سينتصر في الأخير وسيجمع بينهما

قربها إليه ثم عنه أبعدها، رأت في عينيه انعكاسا لصورتها ونظرة تقول لها أنا أنتِ وأنتِ مني، تعثّرت وترنّحت ثم تمالكت ليصبح الكون كتلة صوت يردّد معها: أنا أنتَ وأنتَ مني.

وانتفت المسافات بينهما وغابت السنوات ورقصت روحيهما على وقع أمنيات تحققت وأحزان رحلت.

لم تدر كم مضى من الوقت حتى استرجعت توازنها وأخذت تنتبه أنه تغير كثيرا. فلحيته السوداء يتخللها شعر أبيض وأنه فقد الكثير من وزنه ولكن نظرته لم تتغيّر.

قال: لم تتغيري.

أعادت إحكام وضع شالها فوق رأسها وهي تقول: بلى تغيرتُ وأنت أيضا تغيرت.

نظرت إليه والأسئلة تتسابق على شفتيها: كيف؟ ومتى؟ وأين؟

أمسك بيدها في حنوّ وقال تلك قصة طويلة جدا سيكون أمامنا كل العمر لنحكيها.

رنّ هاتفه معلنا ورود رسالة، فتحه بينما فتحت هي حقيبتها وأخرجت حزمة الرسائل ووضعتها بين يديه، قال: ما هذا؟

- تلك قصتي منذ تركتني إلى اليوم.
- ذلك قوس فتح في حياتنا غصبا عنا واليوم نحن من سنغلقه بإرادتنا.

ودون تفكير سلمها جزءً من الرسائل وفي حركة سريعة ألقى بما أبقاه عنده بعيدا وسط المياه وأشار إليها إن تفعل مثله، دون تفكير رمت ما لديها من أوراق في الماء وسرعان ما ابتلعها وغاصت إلى قاع البحر.

أمسكها من يدها وهمس لها في أذنها:

- حب عمري تعالي ننسى كل ما مرّ علينا، تعالي نولد مع ميلاد الحرية في هذا الوطن!

هيا نلتحق بالمتظاهرين أمام وزارة الداخلية والمطالبين برحيل ذلك المجرم السفاح.

بعد نصف ساعة من السير على الأقدام استطاعا أن يلتحما بالمتظاهرين بعد إن تسلما من أحدهم لافتة كتب عليها شعار التظاهرة (ارحل).

وكأنهما لم يفترقا، وكأن الأحداث تتكرر في شكل جديد وفضاء جديد لتجد نفسها معه كما حدث منذ خمسة وعشرين عاما وسط مظاهرة ضد الظلم والظلُام وقد تغيّر الظالم ولكن الظلم لم يتغير.

مالت عليه وهمست وسط صراخ المتظاهرين قائلة:

وكأننا اتحدنا ذلك اليوم تحت ذلك القبو، فاشتعل الضوء فينا وظلّ لعقود ولم ينطفئ، كلانا مضى نحو آخر أحلامه منفردا. ثم بعد دهر، بعد

عمر، بعد و بعد وبعد نلتقي، وكأن كلانا تخلّص من ماضيه، من لياليه، من كل أحزانه وبؤسه، من كل المسافات التي كانت تفصلنا ولم يبق فينا سوى ذاك الذي اشتعل يوما ووحدّ بين مصيرنا ومصير هذا الوطن، ألسنا جزءا من هذا الوطن؟.